الرسالة

(عبرانيين ٦: ١٣–٢٠)

يا إخوةُ إنَّ اللهَ لمَّا وعدَ إبرهيمَ إذ لم يمكن أن يُقسِمَ بما هو أعظمُ منه أقسم بنفسه* قائلًا لأُباركنَّك بركةً وأُكثِّرنَّك تكثيراً* وذاك إذ تأنَّى نالَ الموعِدَ* وإنَّما الناسُ يُقسِمونَ بما هو أعظمُ منهم وتنقضي كلُّ مشاجرةٍ بينهم بالقَسَمِ للتثبيت* فلذلك لمَّا شاءَ اللهُ أن يزيدَ وَرَثةَ الموعِدِ بياناً لعدمِ تحوُّلِ عزمه توسَّط بالقَسَم* حتى نحصُلَ بأمرَيْنِ لا يتحوَّلان ولا يمكنُ أن يُخلِفَ اللهُ فيهما على تعزيةٍ قويَّةٍ نحن الذين التجأنا إلى التمسُّكِ بالرجاءِ الموضوع أمامنا* الذي هو لنا كمِرساةٍ للنفسِ أمينةٍ راسخةٍ تدخلُ إلى داخلِ الحجاب* حيثُ دخَلَ يسوعُ كسابقٍ لنا وقد صار على رِتبةِ ملكيصادقَ رئيسَ كهنةٍ إلى الأبد.

القدّيس يوحنّا السلّمي

في الأحد الرابع من الصوم تقيم كنيستنا المقدّسة ذكرى القدّيس يوحنّا السلّمي، وذلك عائد، بحسب كتاب التريودي، أي الكتاب الذي يُستخدم في خِدَم الصوم الكبير، إلى أنّ كتابه «السلّم إلى الله» يُقرأ في فترة هذا الصوم الكبير، على الرغم من أنّ الكنيسة تعيّد له في الثلاثين من شهر آذار. كما تربط الكنيسة هذا الأحد بمَثَل السامري الشفوق (لو١٠: ٣٠–٣٧) (إذ أن القانون الذي يُتلى في صلاة سَحَر هذا الأحد يركِّز على مَثَل السامري الشفوق)، مشبّهةً إيّاه بالربّ يسوع المسيح الذي يساعد ذاك الذي وقع بين اللصوص، وهو المؤمن الذي يقع بين لصوص أفكاره التي تبعده عن وصايا الله.

إنّ الصوم مسيرة، وقد شبّهتها الكنيسة بمسيرة شعب الله من أرض العبوديّة إلى أرض الميعاد، تلك المسيرة التي امتدّت أربعين سنة، وتمتد هذه المسيرة في الصوم الكبير أربعين يومًا. وكما واجهت الشعب عراقيل كثيرة، أدت في غالب الأحيان إلى ابتعاد الشعب عن الله، وإلى شوقه لأرض العبوديّة، مفضّلاً شقاء العبوديّة على عناية الله له، هكذا الإنسان المؤمن الذي قرّر خوض مسيرة هذا الصوم الكبير، وبعد أن قطع النصف الأوّل من هذه المسيرة، تراوده أفكار كثيرة تشتّته وتبعده عن الهدف. فيأخذ بالتركيز على صومه، ناظرًا إلى نفسه من دون أن ينظر إلى وجه الربّ في وجوه الآخرين، ويبدأ بالتساؤل: لماذا أصوم وأُتعِبُ جسدي والآخرون لا يصومون؟ ويشرع بإدانة الآخرين ومراقبتهم. فتتغلغل الأفكار السيئة في نفسه، وعوض أن يتابع سعيه نحو اقتناء الفضائل، تجذبه تلك الأفكار إلى الأهواء التي تبعدنا عن الله، والتي توصلنا إلى خطيئة التكبّر الذي هي أمّ كلّ الخطايا.

العدد ١٥ / ٢٠١٦
الأحد ١٠ نيسان
الأحد الرابع من الصوم
أحد القديس يوحنا السلّمي
تذكار الشهداء ترانتيوس وبومبيوس ورفاقهما
اللحن الرابع
إنجيل السَحَر الأول

يصوّر لنا كاتب التسابيح حالة الإنسان هذه، في القانون الذي يُرتّل صباح الأحد، بصورة الذي وقع بين اللصوص، فيبدأ قائلاً: «أيّها المسيح المخلّص، إنّني قد شابهت الواقع بأيدي اللصوص، وكما تُرك ذاك من ضربهم بين ميت وحي، كذلك أنا تجرّحت بخطاياي». ويتابع كاتبًا:

«أيّها المسيح المخلّص، اشفني أنا المجلود العقل بسياط الخطايا من لصوص الظلمة والأفكار الشرّيرة، وخلّصني بما أنّك جزيل الرحمة»؛ «لقد بذّرتُ العمر الإلهي بالأهواء، وإذ جُلدتُ بجملتي من الخطايا بشدّة لجأتُ إليك ضارعًا، ترأف عليّ أيّها السيّد». يشبّه الكاتب الأفكار الشرّيرة باللصوص، والأهواء واللّذات بالوسائل التي تستخدمها الأفكار لتعرّي الإنسان وتجلده: «إنّ الأهواء عرّتني من وصاياك وجُلدتُ من اللّذات، لكن أنت أيّها المسيح المخلّص، أفِض عليّ مراحمك»؛ «إنّ اللصوص قد سلبوا أفعالي الإلهيّة وغادروني بالجراحات معذّبًا». بسبب هذه الأفكار يتعرّى الإنسان من الفضائل، أي يفقدها: «إنّ نفسي ضعفت من جلد الزلّات بأوجاع، ومن ثمّ أنا طريحٌ عريانًا من الفضائل الإلهيّة، فأتوسّل إليك ضارعًا، أيّها المسيح خلّصني». والسبب الأساسي الذي يؤدّي بالإنسان إلى هذا الوضع هو عدم حفظه للوصايا الإلهيّة: «أيّها المسيح، إنّني لم أحفظ أوامرك، بل أقبلتُ بعزمي نحو أهواء اللّذات، فتعرّيتُ من النعمة وطُرحتُ مجرّدًا بالجراحات، لذلك أبتهل إليك أيّها المخلّص، خلّصني». وفي هذه الحال يجد الإنسان نفسه متروكًا حتّى من أقرب المقرّبين إليه، المتمثّلين بالكاهن واللاوي في المثل الذي أعطاه الربّ يسوع، كما أنّ السامري الشفوق يمثّل الربّ القادر وحده على خلاص الإنسان: «إنّ الكاهن واللاوي قد شاهداني فلم يقدرا على خلاصي، لأنّهما أعرضا عنّي. إلاّ أنت بما أنّك متحنّن قد وهبتني الخلاص وأنقذتني». «إنّ اللاوي لمّا أبصر ألم جلداتي، وإذ لم يحتمل الجراح تجاوزني مهملًا، وأمّا أنت يا محبّ البشر فسكبتَ عليّ غنى مراحمك»؛ «يا يسوع المسيح، أتوسّل إليك أن تتعاهد جراح نفسي، وتطبّب أوجاعي، كما فعلتَ وقتًا ما بالذي وقع في أيادي اللصوص». غير أنّ كلفة مداواة الربّ يسوع لهذا الإنسان كانت باهظة، فقد بذل الربّ نفسه ليخلّصه: «أيّها السيّد المخلّص، أنت دفعتَ نفسك وجسدك فداءً عنّي وخلّصتني، أنا المجروح بكثرة الزلّات جراحات لا شفاء لها، بما أنّك متحنّن»؛ «أيّها المسيح لقد ترأفتَ عليّ وخلّصتني، أنا الذي جُلدتُ بقساوة من سياط اللصوص، ودفعتَ نفسك وجسدك فداءً عنّي، كمثل دينارَين، بما أنّك المتحنّن».

هنا يأتي دور تعاليم القدّيس يوحنّا السلّمي، في كتابه «السلّم إلى الله»، لينبّه الإنسان الذي يسعى إلى الاتحاد بالله ولقاء الربّ يوم القيامة، إلى عدم الوقوع في فخ اللصوص، أي الأفكار الشرّيرة، فيتحاشاها متسلّحًا بالفضائل التي تثبّته وتحفظه من الوقوع في الخطايا، التي هي الابتعاد عن الله. وأهمّ سلاح يتسلّح به المؤمن هو الطاعة، «لأنّ الطاعة إنّما تُصعِد إلى السماء» (٤: ١)، وهي «إقدام من دون بحث، موت طوعي، سيرة بلا تعقيد، عدم الاكتراث للأخطار، حماية تلقائيّة من لدن الله، عدم الخوف من الموت، إبحار أمين ... قبر للمشيئة وقيامة للاتضاع» (٤: ٣). بالإضافة إلى الطاعة يعتبر القدّيس يوحنّا أنّ التوبة وذكر الموت والنوح (البكاء في الصلاة) هي الفضائل الأساسيّة التي يبني المؤمن حياته عليها، أيّ أنّ الإنسان الذي يسعى للسلوك في الوصايا الإلهيّة، متمثّلاً بالربّ يسوع الذي أطاع الله الآب حتّى الموت موت الصليب، يحاول العيش في حالة قوامها الطاعة والتوبة والنوح وذكر الموت.

بالمقابل على المؤمن أن يحارب

الإنجيل

(مرقس ٩: ١٧–٣١)

في ذلك الزمان دنا إلى يسوعَ إنسانٌ وسجدَ له قائلًا يا معلّمُ قد أتيتُك بابني به روحٌ أبكم* وحيثما أخذهُ يصرعُهُ فيُزبِدُ ويصرِفُ بأسنانه ويَيبس. وقد سألتُ تلاميذَك أن يُخرِجوهُ فلم يقدروا* فأجابه قائلًا أيُّها الجيلُ غيرُ المؤمنِ إلى متى أكونُ عندكم حتى متى أحتمِلكم. هلمَّ بهِ إليَّ* فأتوهُ به. فلمَّا رآهُ للوقت صرَعهُ الروحُ فسقطَ على الأرضِ يتمرَّغُ ويُزبِدُ* فسأل أباهُ منذ كم من الزمان أصابه هذا* فقال منذ صباهُ، وكثيراً ما ألقاهُ في النار وفي المياه ليُهلِكَهُ. لكن إن استطعتَ شيئاً فتحنَّنْ علينا وأغِثْنا* فقال له يسوعُ إن استطعتَ أنْ تؤمِنَ فكلُّ شيءٍ مُستطاعٌ للمؤمن* فصاحَ أبو الصبيّ مِنْ ساعَتهِ بدموعٍ وقال إنّي أُؤمِنُ يا سيّد. فأَغِثْ عدم إيماني* فلمَّا رأى يسوعُ أنَّ الجمعَ يتبادرون إليهِ انتهرَ الروحَ النجسَ قائلاً لهُ أيُّها الروحُ الأبكمُ الأصمُّ أنا آمرك أنِ اخرُجْ منه ولا تعُدْ تدخلُ فيهِ*

فصرخ وخبَطهُ كثيراً وخرج منه فصار كالميّتِ حتى قال كثيرون إنَّه قد مات* فأخذ يسوعُ بيدهِ وأنهضهُ فقام* ولمَّا دخل بيتاً سألهُ تلاميذُهُ على انفرادٍ لماذا لم نستَطِع نحن أن نُخرِجَهُ* فقال لهم إنَّ هذا الجنسَ لا يمكن أنْ يخرُجَ بشيءٍ إلَّا بالصلاة والصوم* ولمَّا خرجوا من هناك اجتازوا في الجليل ولم يُرِد أن يَدْري أحدٌ* فإنَّه كان يعلّمُ تلاميذَهُ ويقول لهم إنَّ ابنَ البشر يُسلَمُ إلى أيدي الناس فيقتلونَه وبعد أن يُقتَل يقومُ في اليوم الثالث.

تأمل

«هذا الجنس لا يمكن أن يخرج بشيءٍ إلّا بالصلاة والصوم» (مر ٩: ٢٩).

لنعانق الصوم بورعٍ وإيمانٍ نشيط، ولنحتفِ به لا بحميةٍ عقيمةٍ كالتي يُمليها غالباً ضعف الجسد ومرض البخل، بل بكرمٍ سخيّ، هكذا نكون حقًّا ممّنْ قال فيهم «الحقُّ» نفسه: «طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ فإنّهم سيُشبَعون» (متى ٥: ٦). فلنتنعّم إذاً بأعمال التقوى، ولنمتلئ من هذه الأطعمة المغذّية في سبيل الأبديّة. إذ كلما كان العيد أسمى لزم المحتفل به أن يكون مزيَّناً في سبيل المحافظة على هذه الفضائل، وأن يجاهد ضدّ الأهواء التي تؤدي إلى خسارة الإنسان لتلك الفضائل. ويعتبر القدّيس يوحنّا أن الأهواء الرئيسيّة هي الغيظ والضجر والشراهة والزنى وحبّ المال وعدم الإحساس والكبرياء، وهذه تتبعها أهواء ثانويّة أخرى. بهذه الطريقة يتكوّن عند المؤمن حسّ روحيّ يميّز به الإيحاءات الصالحة والشرّيرة ويتبيّن مشيئة الله ويتّبعها، ساعيًا نحو الوداعة والاتضاع الذي هو تشبّه بالربّ يسوع المسيح (٢٤: ٦). الهدف الأخير الذي يسعى إليه الإنسان هو الاتحاد بالله، فيعود إلى الحالة الفردوسيّة حيث يكون الإنسان في حضرة الله، في حالة صلاة نقيّة دائمة.

قانون القديس إندراوس

يعتبر قانون التوبة الكبير للقديس إندراوس الكريتي أحد الصلوات المميزة لفترة الصوم الأربعيني المقدس، وهو يحمل في طيّاته الأسس الروحية التي يجب أن يحياها المؤمن في صيامه كي يكون هذا الصوم مثمراً. أهم هذه الأسس التوبة والعودة إلى الأحضان الأبوية.

يتألف هذا القانون، الذي كتبه القديس إندراوس أسقف كريت في القرن السابع، من تسعة مقاطع تُسمَّى أودية، وكل مقطع مؤلَّف من عدد كبير من التراتيل (يفوق عددها كلها المئتين والخمسين قطعة) يفصل فيما بينها اللازمة «ارحمني يا الله ارحمني». بحسب كتاب التريودي (الكتاب الطقسي الذي يُستعمل في الكنيسة في فترة الصوم الكبير في صلوات الغروب والسَحَر) فإن هذا القانون يُتلى في صلاة سَحَر الخميس من الأسبوع الخامس من الصوم، إنما لأسباب رعائية صار يُتلى مع صلاة النوم الكبرى في ذلك اليوم. وكانت الكنيسة قد رتبت أيضاً أن يُقرأ هذا القانون مقسماً إلى أربعة أقسام في الأيام الأربعة الأولى من الصوم الكبير.

وُلد القديس إندراوس في دمشق عام ٦٦٠، وقد انتقل في صباه إلى أورشليم ثم إلى القسطنطينية عام ٦٨٥ حيث سيم شماساً وصار يهتم ببعض الشؤون الإدارية والرعائية. سيم أسقفاً على غورتينا في جزيرة كريت حوالي عام ٧٠٠ وصار يلقب بالكريتي. دافع عن الإيمان القويم ضد الهراطقة المونوثيليين القائلين بمشيئة واحدة إلهية في الرب يسوع، (أي ان المشيئة الإلهية ابتعلت المشيئة البشرية)، وقد حرّم المجمع المسكوني السادس (سنة ٦٨٢) بدعتهم هذه، وقال قديسنا مع المجمع بمشيئتين إلهية وبشرية، كاملتين، في المسيح يسوع. رقد بالرب عام ٧٤٠ وتعيِّد له الكنيسة في ٤ تموز.

من بين كتاباته قانون التوبة المذكور أعلاه، الذي هو صرخة توبة وطلب لرحمة الله ورأفته، وفيه قراءة روحية لقصة الإنسان وعلاقته مع الله في الكتاب المقدّس التي هي في الواقع قصة الخطيئة والتوبة والمسامحة. في هذا القانون يعرض لنا القديس إندراوس أمثلة من الكتاب المقدس عن أولئك الذين خطئوا ونالوا العقاب، والذين تابوا ونالوا البركات والخلاص، فيدعونا إلى التشبّه بهؤلاء الصالحين والابتعاد عن أعمال الخطأة: «يا نفس ها قد أحضرتُ لك جميع أخبار العهد

القديم نموذجاً، فماثلي أعمال الصدّيقين المحبوبة من الله وفُرّي هرباً من خطايا الأشرار أيضاً» (من الأودية الثامنة)، «يا نفس قد أحضرت لك نموذجات الكتاب الجديد لتقودكِ للتخشع، فشابهي إذاً الصدّيقين واجنحي عن الخطأة واستعطفي المسيح بالصلوات والأصوام والطهارة والوقار» (من الأودية التاسعة).

يشدّد القديس إندراوس في هذا القانون على الإعتماد على رحمة الله. لأنه بالرغم من ضرورة توبتنا وإظهار هذه التوبة بطريقة عيشنا، فإننا لا نستطيع أن نخلص بأعمالنا بل بعطية الله المجانية التي منحنا إياها في ذبيحة ابنه الوحيد على الصليب: «أيها المخلّص قد أخطأت فارحمني. أنهض عقلي إلى الرجعة واقبلني تائباً وترأف علي صارخاً: إليك وحدك أخطأت وأثمت، فارحمني وخلّصني» (من الأودية الثامنة)، «لا تطلب مني ثماراً لائقة بالتوبة أيها المخلّص وحدك، لأن قوّتي قد فنيت فيَّ، لكن امنحني على الدوام قلباً منسحقاً ومسكنة روحانية حتى أقرّبهما لك كضحية مقبولة» (من الأودية التاسعة).

المهم أن يعود الإنسان إلى الله تائباً معترفاً بخطاياه والرب بمحبته يقبل التوبة الصادقة: «هلمَّ أيتها النفس الشقية مع جسدكِ واعترفي لبادئ الكل وقدّمي لله دموعاً مع التوبة... أيها المخلّص وإن كنتُ قد أخطأتُ لكنني أعرف انك محبٌ للبشر لأنك تضرب بحنو وتترأف بحرارة، تنظرني باكياً فتبادر إليَّ كأبٍ داعياً إياي أنا الشاطر» (من الأودية الأولى).

لعل أقوى الصور في هذا القانون موجودة في: «أيها المخلّص وإن كان لم يُخطئ أحد كما أخطأت أنا نحوك، لكن اقبلني تائباً بورع وهاتفاً بشوق لك وحدك أخطأتُ وأثمتُ فارحمني» (من الأودية الثامنة). فالمؤمن الحق يعي أن كل إنسان هو فريد في عيني الرب، وإن الله أغدق عليه نِعَمه ومواهبه التي تجعل منه إنساناً فريداً ومتميّزاً، لذا عندما يُخطئ ويخون محبة الله فإنه يشعر أنه أول الخطأة كما نقول في الصلوات قبل المناولة المقدسة. كلما اقترب الإنسان من الله واختبر محبة الله، كلما صارت أصغرُ الخطايا كبيرةً في عينيه. عندما نقف يوم الدينونة أمام منبر الرب الرهيب سوف نحاسَب عن خطايانا نحن وليس عن خطايا غيرنا، لذا لا تهم المقارنة مع الغير. المهم اني أنا الذي أحببتُ الله أخطأتُ تجاهه وليس لي مخلّص سواه: «صادقة هي الكلمة ومستحقة كل قبول ان المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلِّص الخطأة الذين أولهم أنا» (١ تيمو ١: ١٥).

مع اقتراب موسم الصوم من نهايته، تعود الكنيسة وتذكِّرنا كما علَّمتنا في فترة التهيئة قبل بدء الصوم ان التوبة هي الأساس للعودة إلى الأحضان الأبوية. ومَن يريد أن يحصل على ثمار القيامة المقدسة التي فتحت لنا أبواب الفردوس المغلقة عليه أن يبدأ توبة صادقة فيدخل إلى الملكوت: «توبوا فقد اقترب ملكوت السموات» (متى ٤: ١٧).

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb

فيه على نحو أفضل. ولكن، ما الفائدة من تصنّعٍ خارجيٍّ يعرض مظاهر الكرامة، إن كان داخل الإنسان ملطّخاً بدنس رذيلةٍ ما؟ إذاً، على كل امرئٍ أن يتفحص ضميره وأن يمثُل أمام نفسه لدينونةٍ شخصيّةٍ صارمة. ليتبصّر إن كان يجد في خفايا قلبه ذاك السلام الذي يعطيه المسيح (يو ١٤: ٢٧)، أن لا تكون شهواته الجسدية تقاوم رغباته الروحية (غلا ٥: ١٧)، أن لا يكون محتقراً ما هو وضيعٌ، راغباً في عظائم الأمور (رو ١٢: ١٦)، أن لا يفرح بأيّ ربحٍ ظالم، أخيراً أن لا يكون متحرّقاً غيرةً لسعادة آخر أو مهتزّاً فرحاً لشقاء عدوّ. وإن لم يجد في نفسه ربما أياً من هذه الميول الفاسدة، فليفتش عندئذٍ بعناية، وفي امتحانٍ صادق، عن طبيعة أفكاره المعتادة. ألا يقبل البتّة بتصوّرات الأباطيل؟ هل يعجّل في تجريد نفسه من تلك التي تداهن بطريقةٍ خطرة؟ في الحقيقة، أن لا يهتزّ المرء لأيّ إغراءٍ وأن لا تداعبه أيّةُ رغبة، فهذا ممّا لا يختصّ بالحياة الحاضرة التي ليست في جملتها سوى تجربة (أي ٧: ١)، وتجربةٍ يُهزَم من خلالها حتماً كلُّ مَن لا يخشى الهزيمة.

القديس لاون الكبير